هيمنت بعض الاحداث السياسية على تقسيم التاريخ الاندلسي

المدرس المساعد : زينب عباس سعيد
zainabsaeed@uomustansiriyah.edu.iq

ان الذين كتبوا التاريخ هم وعاظ السلاطين او كتابهم او وزراؤهم وحتى الشعراء الذين كانوا يستصحبونهم معهم في المعارك ،فعلى مستوى التاريخ الاندلسي مثلا ابن الخطيب الغرناطي كان كاتبا ووزير فألف عدد من الكتب غلبت عليها الطابع السياسي وكذا ابن خلدون وابن صاحب الصلاة في كتابة المن بالإمامة وعندما تتابع غزوات الحاجب المنصور وكانت ٥٧ غزوة في كلها كان يصاحب الشعراء ولذا كانت كل الكتابات التاريخية على مساحة العالم الإسلامي اتصلت بالجانب السياسي ولكن مع هذا نجد أيضا في القرن الخامس وما بعده بدأت تظهر مؤلفات فقهية وتراجم وغيرها وذلك كل حسب تخصصه.

لم يبتدع الأندلسيون طرقًا جديدة في التأريخ لبلادهم، وإنما اكتفوا بتقليد المشارقة في ذلك؛ فساروا على مناهجهم التي استمدوها من الكتب التاريخية التي اطلعوا عليها ، وكان لشيوع ظاهرة احتكار أهل الحديث للكتابات التاريخية في العالم الإسلامي أن انسحبت بالضرورة على مؤرخي الأندلس ، فكان معظم المشتغلين في الأندلس - شأن نظرائهم في الشرق - محدثين دخلوا التاريخ من باب الحديث فعبدالملك بن حبيب (174 - 238 هـ / 790 - 852 م) كانت له رحلة إلى الحجاز ومصر، وتأثر بالمحدثين والفقهاء في كتابة تاريخه، كما تتلمذ أحمد بن محمد الرازي (ت 324هـ / 936 م) على محدثين من قرطبة، أمثال: قاسم بن أصبغ، وأحمد بن خالد ، وكذلك نجد الحوليات المشرقية قلدها الأندلسيون، وكتب التراجم من حيث اتباعهم منهج الطبقات أو ترتيبها على حروف المعجم

وكانت بداية الكتابة التاريخية في الأندلس على يد عبدالملك بن حبيب الذي يعد أقدم مؤرخي الأندلس، وقد تأثر بالكتابات المشرقية، وخصوصًا المصرية ، وفي كتابه "التاريخ" التزم بمنهج التأريخ على السنين فيما يتعلق بالأحداث الواقعة في تاريخ الإسلام في المشرق حتى افتتاح الأندلس، والتزم بذكر تاريخ ومدة كل من ولاة وأمراء الأندلس، وعلى الرغم من قدمه فإن قيمته التاريخية ضئيلة، وروايته لأخبار افتتاح الأندلس تطغى عليها الأساطير ، واعتمد فيه على ما تناقل ذكره مؤرخو الأندلس من أحداث

وبدأت الكتابة التاريخية تتطور شيئًا فشيئًا بظهور عائلة الرازي، وهم على التوالي: محمد الرازي (ت 277 هـ / 890 م) صاحب كتاب "الرايات"، وكما يتضح من عنوانه ينم عن نظرة ضيقة ومفهوم قاصر عن التاريخ، إلا أنه يشتمل على معلومات قيمة عن فتح الأندلس، وكيفية دخول موسى إلى البلاد، وفيه تفصيلات عن القبائل التي رافقته وتقسيم الأراضي، وكيفية التعامل مع السكان المحليين ، وجاء من بعد محمد الرازي ابنه أحمد ، وله كتاب عن "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم"و"الاستيعاب في أنساب مشاهير الأندلس - في خمسة أسفار، وقد ضاعت هذه الكتب كلها ولكن معظم الروايات التاريخية التي جاءت في المصادر هي من كتابه "أخبار ملوك الأندلس"، وأصبح منهجًا لمن أتى بعده، وعلى رأسهم ابن حيان

أما طريقته في كتابة التاريخ فتقوم على وضع مقدمة جغرافية، ثم تناول الأمراء واحدًا بعد الآخر، مهتمًّا أثناء ذلك بترتيب الأحداث حسب السنين، يعرض أحداث كل سنة، في حكم الأمير، ويختم السنة بعرض وفَيات تلك السنة .

أما عيسى بن أحمد الرازي (ت 379هـ/ 989م) ، فيمثل آخر أفراد أسرة الرازي ممن عنوا بكتابة تاريخ بلادهم، ومن مؤلفاته كتاب التاريخ المسمى "الموعب" لأنه استوعب فيه تاريخ الأندلس حتى عصرهوامتاز أسلوبه بالدقة المتناهية، وظهر ذلك في كيفية تناوله للأحداث في رواياته، فلديه اهتمام بالزمان في رواياته، وهو يأتي على ذكر تأريخ الحدث بالسنة والشهر واليوم ووقته في ذلك اليوم ، ولم يكن يؤرخ لإسبانيا الإسلامية وحسب، بل تناول كذلك تاريخ إسبانيا المسيحية وعلاقتها بالدولة الأموية وتعرضه لأخبار العدوة المغربية، ويؤكد ذلك ما نقله عنه ابن حيان في المقتبس

وظهرت مؤلفات بعضها خاص بتراجم رجال الأندلس وعلمائها، ومن أمثلة ذلك: كتاب جذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتمس للضبي، ومطمح الأنفس لابن خاقان، والذخيرة لابن بسام، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وقوام منهج تراجم الرجال يقوم على الاقتصار على الحديث عن الشخصية، وعدم إعطاء الأحداث السياسية أي اهتمام ، ومن خلال التأريخ لهم صور المؤرخون مدى كثافة الحركة الثقافية في الأندلس،كما شهدت الكتابة في مجال "الطبقات" تطورًا مماثلًا؛ فلم تقتصر على الترجمة لأعلام المذاهب والفرق والفقهاء، وإنما اتجهت اتجاهًا دنيويًّا تمثل في الترجمة لمشاهير الأدباء والشعراء وأعلام الفكر على اختلاف هوياتهم المذهبية وانتماءاتهم السياسية، وخير ما يعبر عن ذلك كله كتاب "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضي (ت 403هـ / 1013م) ، وقد بين في مقدمة الكتاب أن مؤلفه يضم عددًا كبيرًا من فقهاء الأندلس وعلمائها، ورواتها، وأهل العناية بالعلم منهم مرتبين على حروف المعجم لذلك صدق من قال: إن ابن الفرضي يعد رائدًا في هذا المجال بالأندلس، حيث طور الكتابة في "الطبقات" لتشمل سائر الفعاليات الثقافية والعلمية فضلًا عن الاهتمام بالتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي وفي هذا المجال صنف أيضًا محمد بن الحارث الخشني (ت 361 هـ / 971 م) كتاب "قضاة قرطبة" الذي قال عنه المستشرق الإسباني بالنثيا: "إن أخبار هذا الكتاب موضوعة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ" ، ورغم أن صاحبه لا يبدي رأيه في الأحداث، ولم يكن إلا ناقلًا للأخبار مسجلًا لها غير مدقق في تسجيله هذا وفي انتقائه للروايات الصحيحة منها، وكثيرًا ما يستخدم ألفاظًا تشير إلى عدم الدقة، مثل: حكى بعض رواة الأخبار، وذكر بعض أهل العلم، أخبرني من أثق به فإن كتابه قضاة قرطبة احتوى على عديد من سلبيات ونقائص المجتمع الأندلسي.

وظهرت مؤلفات أخرى خاصة بـ"الأنساب"، مثل كتب محمد بن يوسف الوراق (ت.263هـ / 876 م) "البربر"، وألف عبدالله بن عبيد الأزدي (ت.241هـ / 855 م) كتابًا في الأنساب، بعنوان "أنساب الداخلين إلى الأندلس بين العرب وغيرهم" ، فضلًا عن كتاب "أعيان الموالي"، أما صاحب كتاب أخبار مجموعة فبرغم كون كتابه في الفتوح أصلًا فإنه وجه اهتمامًا للعصبية العربية في الأندلس وللقرشيين والبيت الأموي على وجه الخصوص، وكذلك كتاب "جمهرة أنساب العرب" لابن حزم، و"الإنباه على قبائل الرواه" لابن عبدالبر، أما ابن القوطية (ت 367هـ / 977 م) ، فقد كتب بميل واضح للعناصر القوطية تعكس تلك الكتابات واقع الصراع العنصري الذي عم الأندلس منذ الفتح وحتى عصر الإمارة ، وقد اهتم بعض مؤرخي الأنساب بتوضيح المنهج المتبع من أمثال ابن حزم في الجمهرة ، وهناك من تحرر من الإسناد، ومنهم من التزم به

كما ظهرت مؤلفات في الجغرافيا التاريخية؛ فقد كانت كتابات مؤرخي الأندلس عمومًا تبدأ باستهلالها بمباحث جغرافية، حتى صار ذلك قاعدة تحتذى، حيث يتعرضون "لممالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة" ، وسارت الكتابة في هذا المجال تسير على وتيرة واحدة، وهي: تنسيق المادة وعرضها وتقسيم الكتاب إلى فصول؛ كل فصل يتحدث عن بلد معينة، محددًا موقعها الجغرافي ويقسمها إلى عدد من المدن ويتحدث عن كل مدينة على حدة ، ومن أمثلة هذا المنهج كتاب معجم ما استعجم والمسالك والممالك للبكري، و"ترصيع الأخبار" للعذري، وفيه كان يعرض لسكان الأقاليم موضحًا أصولهم وأنسابهم وتوقيت استيطانهم الأندلس وأنماط حياتهم وسجاياهم ومثالبهم، هذا فضلًا عن موضوعات ذات طابع سياسي - اجتماعي؛ كحركات الصعاليك بالأندلس، وأخرى ذات مسحة اقتصادية لها تأثير سياسي؛ كالأوبئة والمجاعات، هذا فضلًا عن معلومات جغرافية وتاريخ الشرق الإسلامي عاينها أثناء تجواله؛ لذلك أثنى عليه الدارسون المحدثون وقرظوا إنجازاته التي تمزج الجغرافيا بالتاريخ.

وشهد العصر أيضًا ظاهرة الكتابة التاريخية التي تدخل في باب "المذكرات الخاصة"، وكان موضوع الكتاب هو الذي يحدد المنهج المتبع، مثل طوق الحمامة لابن حزم، الذي حظي بشهرة عالمية، واهتم به المستشرقون شرقًا وغربًا واعتبروه "سيرة ذاتية" جمع فيها بين الفكرة الفلسفية والواقع التاريخي، وهناك أيضًا كتاب "التبيان" ، لأمير غرناطة عبدالله بن بلقين (ت 483 هـ / 1090 م) وسرد فيه تاريخ آبائه وأحوال حكمه وحوادث الأندلس في عصره ويعد الكتاب وثيقة هامة كشهادة أحد أمراء ملوك الطوائف على عصره ، وبين الأمير المنهج المتبع بقوله: إنه سيقوم "بذكر جمل من أحوال الأندلس، الحادثة فيها

المشهور خبرها، وتركنا وصف الاختلافات، إذ يوجد الحق في طرف واحد... وذكرنا ما ينقاس في العقل وحذفنا منه الاكثار والمشتبهات"

كما انصب اهتمام مؤرخي الأندلس على الكتابة في الفتح الإسلامي للأندلس، إذ ألف معارك بن مروان تاريخًا في الفتوح، أبرز فيه دور جده في فتح الأندلس، وما كتبه المؤرخ المجهول وابن القوطية في نفس الموضوع، فكان لابن القوطية كتاب "تاريخ افتتاح الأندلس"، وتناول فيه ما يزيد على القرنيين من التاريخ الأندلسي، مبتدئًا بمقدمة تاريخية حول أسرة غيطشة، ودخول العرب إلى الأندلس حتى عهد الخليفة الناصر، متتبعًا في تناوله للموضوعات عهود الأمراء والحكام، غير مكترث بالتسلسل الزمني وتنوعت هذه المعلومات على قلتها، فقدمت لنا أخبارًا عن طبقات المجتمع الأندلسي المختلفة، سواء العرب أم الإسبان أم غيرهم، وقد اتسم أسلوبه بالانتقائية والإيجاز وقد يعتذر عن ذكر بعض الحوادث التي لا يحسن برأيه ذكرها

ثم حدث تطور في موضوعات علم التاريخ، ومن أهم هذه المظاهر كتابة بعضهم "تواريخ عالمية" فبداية كان كتاب التاريخ لابن حبيب برغم الطابع الأسطوري الذي غلف الكثير من المعلومات الواردة فيه، ورغم الخلط بين موضوعات لا تربطها صلة، فالقيمة الحقيقية للكتاب تكمن في كونه المحاولة الأولى لكتابة "تاريخ عالمي" في الغرب الإسلامي ، ثم قام عريب بن سعد باختصار تاريخ الطبري، ثم ذيل عليه وأضاف إليه أخبار المغرب والأندلس التي لم يذكر الطبري عنها شيئًا البتة، كما صنف أبو بكر بن سعيد بن أبي الفياض (ت.459هـ / 1066 م) كتاب "العبر"، وهو تاريخ عالمي، مفقود، لا نقف له على أثر إلا بعض النصوص في الكتب التاريخية اللاحقة، خصوصًا عند ابن عذاري المراكشي، كما طرق ابن حزم ميدان الملل والنحل في الكتابة التاريخية، حيث صنف كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل .

على أن جل الاهتمام انصب على "التواريخ المحلية" ، وعلى غرار كتب التاريخ المحلي، أولى المؤرخون الأندلسيون اهتمامًا لدارسة جغرافية الأندلس وتاريخها في مسحة محلية تتغنى بالمآثر والفضائل والمناقب الخاصة بالإقليم وأهله، فكتاب ابن حبيب تحدث فيه عن جغرافية الأندلس وتاريخها حتى عصره رغم كونه تاريخًا عالميًا، أما أحمد بن محمد الرازي فقد كتب في وضوح وتحديد عن أخبار ملوك الأندلس وخدمهم وغزواتهم ونكباتهم، فضلًا عن مختصر تناول فيه تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد حكم المستنصر، إضافة إلى كتاب عن صفة قرطبة تحدث فيه عن طبوغرافيتها وخططها ومنازل أشرافهاكما كتب ابن عيسى عن تاريخ الأندلس إلى عهد الخليفة هشام المؤيد، كما تضمن كتاب أخبار مجموعة عرضًا تاريخيًا لوقائع التاريخ الأندلسي من الفتح حتى خلافة الناصر ، ولاقت سائر المدن الأندلسية اهتمامًا كبيرًا من المؤرخين نتيجة اتباع نظام الإدارة اللامركزي

==========